الأبعاد المعرفية للعنف

أ.عياد أحمد

تمهـــيـــد:

"العنف" مصطلح شأنه شأن المصطلحات العربية الأخرى، مطاط وإنما تتأتى مطاطيته ليس من تعدد معانيه فقط وإنما كذلك من حيث تنوع مداليله وتنوع الحقول المعرفية التي استخدم فيها.فهو من جهة مادة لغوية ومن جهة ثانية مصطلح فلسفي ومن ثالثة مدلول سيكلوجي ومن رابعة قضية سوسيولوجية ومن أخيرة مفردة انتروبولوجية.

وعلى أساس الاعتبارات السابقة تكون أي محاولة تعريفية "للعنف" تأخـــذه من زاوية واحدة فلسفية أو لغوية أو سوسيولوجية أو غيرها ودون سواه محاولة بائسة تعتبر إلى حد كبير ضرب من العبث وأقرب إلى اللامعقول منه إلى المعقول.

1-العنف مادة لغوية :

"العنف مفردة تتكون من حروف ثلاثة هي العين والنون والفاء وهي مجتمعة ترجع إلى فعل "عنف"، فقد ورد في معجم لسان العرب أن العنف هو الخرق بالأمر وقلة الرفق به أي أنه ضد الرفق، فيقال عنف به بضم النون وعليه يعنف عنفا، وعانفه وأعنفه وعنفه بفتح النون وتشديدها تعنيفا وهو عنيف إذا لم يكن رفيقا في أمره، واعتنف الأمر أي أخذه بعنف وفي الحديث الشريف " إن الله تعالى يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف"[1].أما في معجم الصـــحاح فالعنف بضم العين ضد الرفق فيقال عنف بضـــم النون عليه عنفا وعنف عليه أيضا والتعنيف التوبيخ والتقريع واللوم[2].

وكما ورد في المعجم الوسيط: عنف به وعليه عنفا وعانفه أخذه بشدة وقسوة واعتنف الأمر: أخذه بعنف وأتاه و لم يكن له علم به[3].

فالعنف إذن هو الخرق وهو ضد الرفق وهو عينه ما نجده في الحديث الشريف " الرفق يمن والخرق شؤم". ونفسه نلتمسه في وصية علي رضي الله عنه لولده الحسين "يا بني رأس العلم الرفق وآفاته الخرق[4].

والمفهوم اللغوي للعنف لم تبتعد عنه الدراسات القانونية التي تطرقت للعنف والجريمة والتي تعتبر العنف استخدام لوسائل القهر والقوة والتهديد ولإلحاق الأذى والضرر بالأشخاص والممتلكات وذلك من أجل تحقيق أهداف ومصالح غير قانونية ومرفوضة اجتماعيا[5] وهذا التعريف لا يبتعد عن تعريف آخر تأخذ به الدراسات القانونية هو جعل العنف مجرد التسبيب في إضرار الآخرين بالقتل والتشويه أو الجرح وإلى الجوار من هذا نجد تعريفا آخر يجعل من العنف "كل مبادرة تتدخل بصورة خطرة في الحرية وتحاول أن تحرم حرية التفكير والرأي والتقرير. فالعنف يحدث كلما لجأ شخص أو جماعة لهم قوتهم، إلى وسائط ضغط بقصد إرغام الآخرين ماديا على اتخاذ مواقف لا يريدونها"[6]. عموما فإن كل هذه التعاريف سواء ما أخذ منها من القواميس والمعاجم اللغوية أو ما أخذ من الدراسات القانونية والاجتماعية فإنها كلها تجعل من العنف الخرق أي ضدا للرفق.

2-البعد الفلسفي للعنف:

العنف كمصطلح فلسفي يعرفه "لالاند" في موسوعته الفلسفية في ثلاث استخدام غير مشروع أو على الأقل غير قانوني للقوة[7]. أي أن العنف ليس بالضرورة استخدام القوة وإنما الاستخدام غير المشروع للقوة، إذ استعمال القوة قد لا يكون عنفا بدليل أن الفرد البشري يحتاج إلى استعمال قوة دون أن يكون عنيفا من أمثلة ذكر ممارسته بعض الوظائف الحيوية فالاتصال الجنسي مثلا أو الأكل ووظائف حيوية أخرى قد تكون مصحوبة بنوع من القوة لكن ليست عنفا لأنه استخدام مشروع للقوة في هاته الحالة.

وبعيدا عن المعنى الفلسفي لمصطلح "العنف" نجد الطرح الفلسفي بقضية العنف يتحدد في إشكال فلسفي عريض يتعلق بطبيعة الإنسان هل هو أصلا عنيف ثم أن المدنية والحضارة تسعى إلى تعديل سلوكه ونقله من الحالة البهائمية العنيفة إلى الحالة الحضارية المدنية؟ أم أن الأصل فيه أنه مسالم وأن الحضارة والمدنية ألبسته ثوب الشر والعنف؟ ولعل أهم الكتابات الفلسفية التي تجيبنا عن هذا الاشكال والتي ربما تعتبر كتابات تحسب على الفلسفة الاجتماعية، نجد ما يسمى بنظرية العقد الاجتماعي خاصة مع "توماس هوبزا" و"جان جاك روسو".

إذ نجد بداية "توماس هوبز" (1588-1979) يعتبر الإنسان شرير بطبيعة حامل للكثير من النقائص، جبان، فاسد الطبع، أناني تدفعه مصالحه الذاتية، له نوازع عدوانية وتتحكم فيه غرائز بهائمية غير مهذبة، كما أنه جشع لا يدعن ولا يخضع إلا إذا خاف، ولا يضحي بمصلحته إلا مرغما ولا يناشد السلم طلبا لذات السلم وإنما خوفا من

نتائج الحرب. وفي هذا يقول "هوبز" "الإنسان للإنسان ذئب، والكل في حرب ضد الكل والواحد في حرب ضد المجموع" فالحياة في نظره مجال فسيح ورحب لاستعمال القوة والبطش بالنسبة للأقوياء والمكر والحيل والخداع بالنسبة للضعفاء، ففي اعتقاد "هوبز" هذا الشر والعنف الذي جبل عليه الإنسان هو الذي دفعه إلى أن يبحث بعقله عن الحل، فاهتدى إلى أن العلاج إنما يكون عن طريق تأسيس مجتمع تسوده القوانين التي يمتثل لها الجميع وإنما يكون ذلك عن طريق التعاقد بين الأفراد[8]. وعلى النقيض من ذلك نجد "جان جاك روسو" (1712-1778) يعتقد أن الإنسان خير بطبعه مبدئيا يحتكم إلى قانون الفطرة وقانون الطبيعة، التي هي في اعتقاد روسو قوانين خيرة وعادلة، لكن الحضارة والمدنية والتي ظهرت مع ظهور الملكية وتفاوت الناس ألبست الإنسان ثوب الشر، فتحول من الفطرة إلى المدنية ومعها تحول من الخير إلى الشر ومعها تحول من السلم والرفق إلى العنف والخرق[9].

3-البعد الانتروبولوجي للعنف:

إذا أضحى العنف لدينا تبعا لأشكاله نوع من العداونية التي يجدها الفرد العنيف بين أضلعه والتي يترجمها فيما بعد إلى اعتداء جسدي أو إلى مواقف وصور سلوكية اجتماعية متعددة. كالبذاءة اللفظية وغيرها، فإنه بهذه الشحنة وبهذه الأشكال والتجليات النفسية والسلوكية طبيعة متأصلة في الإنسان.

ولعل هذا ما تركز عليه الدراسات الانتروبولوجية، عندما ترى في الفرد البشري كائنين: الإنسان المتوحش، والإنسان المدني، أي الإنسان البهائمي الذي يحتكم إلى الجانب الغرائزي والحيواني فيه والإنسان الملائكي المهذب والمتحضر، ولعل المؤمن بهذا التصنيف -إنسان متوحش وإنسان مدني- لاشك يجد إيمانا قويا بأن العنف عند الإنسان المتوحش طبيعة متأصلة فيه تتأتاه من غرائزه وبهائميته، شأنه في ذلك شأن المخلوقات الأخرى التي ما إن شعرت بالتهديد حتى تستعمل ما زودت به من سلاح حتى تفتك بعدوها وتقي نفسها شر مخاطره، فهذه لها سم والأخرى مخالب والثالثة قرون والرابعة قدرة فائقة على الهروب والركض وخامسة لها قدرة على التلون والاختفاء وغير ذلك مما يختص به كل صنف حيواني.

ولما كان الإنسان يحمل هذا الجانب البهائمي الغريزي، هو الآخر كان ولايزال لما يشعر بالخطر يهدده يستعمل ما زود به من سلاح يهلك به عدوه الذي يهدده لكن الفرق بين الإنسان والحيوان هو أن الأول يمتلك أداة عنف وقتال، ربما ظاهريا تظهر أنها أضعف من القرون والمخالب والسم، لكن باطنيا وواقعيا هي أداة فتاكة أقوى من السلاح الحيواني وهي العقل. وقد تكون الحكمة الإلهية من ذلك تكمن في كون أن كل نوع من الحيوانات له صنف معين من الحيوانات دون سواه يهدده، أما الأصناف الأخرى فهو يعيش معها في وئام وسلام، ومن الحكمة أن يكون للنوع الأول سلاح يناسب خصوصيات الصنف الثاني المهدد، أما الأمر بالنسبة للإنسان فهو مختلف تماما،

فهو مهدد من طرف حيوانات مفترسة، ومن طرف فضاءات موحشة، ومن طرف عناصر طبيعية عديدة كالزلازل والفياضات، وربما قد يكون مهددا حتى من طرف الإنسان أخيه والحروب أكبر دليل على صحة هذا الافتراض.

وعلى أساس ذلك لم يكن عدو الإنسان الذي يهدده ويبطش صنف معين له خصوصيات معينة وإنما هو عدو مركب متعدد الخصوصيات، فهو الطبيعة أو البيئة الفيزيائية بكل ما تحمل وتحتوي من عناصر وأصناف، وبناء على ذلك لم يكن سلاح الإنسان مخالب أو قرون أو غيرها بل هو سلاح أكبر من ذلك، يستخدم في مواجهة الوحوش، في مواجهة غضب الطبيعة في مواجهة الحرارة والبرودة في مواجهة وحشية الإنسان ذاته، ولما كان سلاح بهذا الشكل متعدد الاستخدام فهو سلاح أكبر وأقوى، ونعني بذلك سلاح العقل. فهو سلاح ما فتئ الإنسان في شتى مراحله وعصوره يشهره في وجه الطبيعة، التي آمن الإنسان منذ وجوده الأول على سطح الأرض أنها العدو الشرس الذي يهدد وينغص عليه حياته، وآمن مع ذلك أنه لابد من إذلالها وإخضاعها له، فكان الإنسان بعقله عنيفا في حق الطبيعة وهو يحاول ترويضها، وعملية الترويض هي التي نجح فيها الإنسان أي نجاح –وإنما يعود الفضل في ذلك لسلاحه المتمثل في العقل– والتي أعطت أكلة لازال يستصيغها ويتلذذ بخيراتها ألا وهي الحضارة والمدنية.

ونحن على إثر ذلك لما نقرأ قصة الإنسان فإننا نقرأ قصة حضارة، ومع الاثنين نقرأ قصة حرب ومغالبة وعنف بين الإنسان والطبيعة، الطرف الأول –الإنسان– بعقله والطرف الثاني –الطبيعة– بوحشيتها ولما نؤمن بوجود حضارة ومدنية فإننا نؤمن بغلبة الإنسان على الطبيعة هذه الغلبة أو العنف اتخذ صورا كثيرة، فقطع الأشجار أو الأحجار عنف وغلبة، تصميم الكهوف والمغارات والعمارات والبيوت، عنف وغلبة استئناس الحيوان والنبات عنف وغلبة، وغيرها من المحاور التي نقف عليها في قراءة قصة الحضارة هي الأخرى تعتبر عنف وغلبة مارسها الإنسان اتجاه عدوه الأكبر الطبيعة.

4–البعد السيكولوجي للعنف:

الدراسات السيكولوجية، تتفق مبدئيا على أن العنف بالضرورة سلوك عدواني بين طرفين متصارعين، وإن كنا نستنتج شيئا من هذا المبدأ بعد تمطيطه فإنما نستنتج أن العنف سلوك يتولد عن عدوانية وعلى أساس ذلك تكون الدراسات والبحوث النفسية لا تجد مانعا من أن تصرح وهي تناقش مسألة العنف عند الفرد أن تجعل ما يشبه التطابق والترادف بين العنف والعدوانية.

وهي مع ذلك تجعل من العدوانية مجرد استعدادات نفسية موجودة عند الفرد وتؤثر بشكل مباشر في تشكيل رأيه ومواقفه وأنماط السلوك لديه، وربما يكون أكبر قول سيكولوجي مفصل في مسألة العدوانية هو موقف

"سيغومند فرويد" الذي يميز بين غريزتين أساسيتين عند الفرد هما: غريزة الحياة التي تمثلها الغرائز الجنسية وغريزة الموت أو التدمير التي تمثلها العدوانية"[10]

ودون أن نتيه في تفاصيل الدراسات السيكولوجية للعنف، لا جرم أن نقر مبدئيا أن الطرح السيكولوجي للعنف يختلف عن الطرح الفلسفي والآخر الانتربولوجي، فإن كانت المناقشات الفلسفية تتمحور حول مناقشة قضية تأصل العنف في الإنسان أو غير ذلك وكاتب الدراسات الانتربولوجية تحاول من جهة معينة وهي تعيد علينا قراءة قصة الإنسان والحضارة –تحاول– أن تحدثنا عن وجود عنف حضاري إيجابي، فإن الطرح السيكولوجي يحاول أن يحدد الأبعاد والخلفيات النفسية للعنف على مستوى الفرد العنيف وعلى هذا المستوى لا يجد السيكولوجيون حرجا من أن يتساءلوا عن الأسباب النفسية للعنف؟ ومثال هذا الطرح السيكولوجي هو ما نجده عند أحد السيكولوجيين عندما يجهل من العنف سلوكا أو رأي أو موقف مجرد التعبير عن فشل يجده الفرد العنيف في عمق نفسه إذ نجده يقول عن العنف أنه " لغة التخاطب الأخيرة الممكنة مع الواقع ومع الآخرين، حين يحس المرء بالعجز عن إيصال صوته بوسائل الحوار العادي، وحيث تترسخ القناعة لديه بالفشل في إقناعهم باللاإعتراف بكيانه وقيمته، والعنف هو الوسيلة الأكثر شيوعا لتجنب العدوانية التي تدين الذات الفاشلة، بشدة من خلال توجيه هذه والعدوانية إلى الخارج بشكل مستمر أو دوري وكلما تجاوزت حدود احتمال الشخص[11]

ويعرفه آخر على أنه "السلوك المشوب بالقسوة والعدوان والقهر والإكراه، وهو عادة سلوك بعيد عن التحضر والتمدن، تستثمر فيه الدوافع والطاقات العدوانية، استثمارا صريحا بدائيا، كالضرب والتقتيل للأفراد، والتكسير، والتدمير للمتلكات، واستخدام القوة لإكراه الخصم وقهره"[12]. وهذا قليل من كثير إذ هذا الرأي السيكولوجي الذي يرجع العنف إلى فشل يجده الفرد العنيف في نفسه أو لغة التخاطب الأخيرة مع الغير والواقع، هو رأي تتمذهب به جميع الدراسات السيكولوجية فيما يخص مسألة العنف، فحتى وإن وجدنا بعض الآراء التي ترجع العنف إلى إحباط أو إلى غيرة أو إلى أي شيء آخر، فإن سر الاتفاق بين جميع الآراء للسيكولوجية يكون على مستويين هما:

أولا: أسباب العنف بالضرورة نفسية.

ثانيا: دراسة العنف كظاهرة إنما تكون على مستوى الفرد والعنيف.

5–البعد السوسيولوجي للعنف:

العنف: "بالدرجة الأولى حالة تدرس بذاتها ولكن ليست مستقلة عن موجباتها ومبرراتها التاريخية، وهو بالدرجة الثانية حالة مركبة من حيث ظهورها وإداؤها وترابطها، حالة ذاتية لها موضوعها، وهوَ بالدرجة الثالثة يتسم بسمة الأداء الفردي والأداء الجماعي". (13)

وتفصيل ما سبق هو أن العنف كظاهرة تدرس من نواحي شتى: من حيث أسبابها وعللها، من حيث أنها قضية فردية، من حيث أنها ظاهرة اجتماعية، فإذا كانت الدراسات الفلسفية في مناقشة مسألة العنف تسائل الطبيعة البشرية، وكانت الدراسات الأنتروبولوجية تسائل تاريخ الإنسان وحضارته، وكانت الدراسات النفسية تسائل التركيبة النـــفسية للفرد، فإن الدراسات الاجتماعية بعيدا وأكبر من ذلك، تجعل من العـــنف كسلوك أو ظاهرة تخص المجتمع وليس الفرد العنيف فقط.

فالعنف في خلد السوسيولوجيا فعل اجتماعي على حد التعبير "ماكس فيبر" بحيث يجب تفسيره على أساس موجهاته التي هي عادة موجهات لكل الأفعال الاجتماعية، كالأعراف والعاطفة والمنفعة والعقل، وبالجوار من "ماكس فيبر" نجد نظرية اجتماعية أخرى هي التفاعلية الرمزية التي تفسر جميع النشاطات والسلوكات التي تصدر عن الفرد أو الفاعل الاجتماعي علة أنها شكل من أشكال التفاعل الحاصل بين الأفراد المشكلين للمؤسسة الإجتماعية أو بين المؤسسات الاجتماعية المشكلة للمجتمع، هذا التفاعل الذي لا يقع بشكل بليغ وأينما تغذيه موجهات هي على حسب اعتقاد "جورج هربرت ميد" هي الرموز والمواقف والتوقعات، وسواء أخذنا برأي الفردانية مع "ماكس فيبر" أو التفاعلية الرمزية مع"جورج هربرت ميد" فإن الأمر سيان، بدعوة أن العادات والعواطف والعقل والمنفعة مع "ماكس فيبر"، أو الرموز والمواقف والتوقعات مع"جورج "هربرت ميد"، كلها وليدة ونتاج بيئة اجتماعية، الأمر الذي يجعل أي فعل أو تفاعل اجتماعي هو بالضرورة نتاج اجتماعي، وحينها فقط يكون من العبث أن نبحث عن موجهاته أو أشكال حدوثه أو كيفية آدائه أو تطوره أو درجاته بعيدا عن البيئة الاجتماعية التي ولد فيها.

ولعله مع هذا نلتمس معقل الاختلاف بين الدراسات السوسيولوجية والأخرى السيكولوجية المتناولة لإشكالية العنف، فإذا كانت الثانية تركز على الفرد العنيف في دراستها للعنف، فإن الأولى تركز على المجتمع الذي ينتمي إليه الفرد العنيف، وعلى إثر ذلك كانت أسباب العنف مع الدراسات السيكولوجية نفسية ومع الدراسات السوسيولوجية كانت الأسباب الاجتماعية.وكشرح للبعد السوسيولوجي للعنف نجد عالم اجتماع معاصر وشهير هو الفرنسي "بيير بورديو" الذي يستعمل ما يسمى لديه "بالعنف الرمزي" إذ يقول: "إن أي نشاط تربوي هو موضوعيا نوع من العنف الرمزي، وذلك بوصفه فرضا من قبل جهة متعسفة ثقافيا"(14)

ودون أن نشرح بالتفصيل ما يعنيه "بيير بورديو" بالعنف الرمزي –بأن ذلك نظرية قائمة بذاتها– يكفينا أن نجزم القول أن أعمال "بيير بورديو" أوضح صورة عن الدراسات السوسيولوجية للعنف والتي تجعله مرتبطا بالمجتمع وليس بنفسية الفرد العنيف.

خلاصة:

إن إشكالية العنف، لما كانت مسألة حساسة مرتبطة بمصير الإنسان والمؤسسة والمجتمع بكامله وتاريخه وديمومته، فإنه لم يتوان أي مفكر وهو في اختصاصه ومناقشته ومحاولة إثرائه، ولما كانت الاختصاصات المعرفية متنوعة ومتباينة، كان طرح الإشكال للعنف يختلف باختلاف الحقول والاختصاصات المعرفية.

فهذا طرح فلسفي، وثاني أنتروبولوجي وثالث سيكولوجي، ورابع سوسيولوجي، وربما لو كنا أكثر صبرا على متابعة الطريق لوجدنا طرحا آخر مع اختصاصات معرفية أخرى كأن نربط بين العنف والبيئة وغير ذلك من الطروحات المختلفة.ولما كان الاختلاف حاصل هنا بسبب اختلاف الحقول المعرفية، فإنه من الأفيد منهجيا ونحن نحاول دراسة العنف أن نحدد مبدئيا وبشكل مسبق الطرح أو البعد المعرفي له حتى تتضح الرؤية ويستقيم المعنى.

الهوامـــش :

1- ابن منظور، لسان العرب، ص 429.

2- محمد ابن أبي بكر عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1967، ص 96.

3- ابراهيم انيس وآخرون، المعجم الوسيط، ط2، مطابع دار المعارف، مصر 1973، ص 631.

4- ابن منظور: المرجع السابق، 429.

5- نفس المرجع، ص 430.

6-جليل وديع شاكور: العنف والجريمة، الدار العربية للعلوم، بيروت،1997، ص 31.

7- سرحان بن دابيل العتمي، ظاهرة العنف السياسي في الجزائر، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد 04، مجلد 28 ، شتاء 2000، ص 49.

8- جماعة من الاخصائيين، المجتمع والعنف، ترجمة إلياس الزحلاو، ط 3، المؤسسة الجامعية للدراسات، 1993، ص 142.

9- لالاند: الموسوعة الفلسفية، ج 03، منشرات عويدات، بيروت 1996، ص 1554.

10-عبد الرحمن بدري، الموسوعة الفلسفية، ج2، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص 500. [1] جان جاك روسو. العقد الاجتماعي، تر.دوقان قرقوط. دار العلم بيروت، ص 16.

11- سيغومند فرويد. الموجز في التحليل النفسي، تر سامي محمود علي وعبد السلام القفاش. دار المعارف،مصر ، ص 88. [1] مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي. معهد الإنماء العربي، بيروت، 1976 . ص 263.

12- فرج عبد القادر. موسوعة علم النفس. دار السعاد الصباح، الكويت، 1993 . ص 551.

13- خليل أحمد خليل. المرجع السابق . ص: 138.

14- محسن خضر : "بيير بورديو" فيلسوف العنف الرمزي. مجلة العربي، عدد 487 ، أفريل 2000 . ص: 64.